الشرقي الجديد وميراثه القديم

بقلم انيس المقدسي

•

من المعلوم ان الشرق العربي هو منشأ الدعوات السماوية العظيمة التي وطدت وحدانية الخالق وحملت الى العالمين رسالة الحق الالهي . فليس من الغريب ان تسوده نزعات روحية وفكرية خاصة توارثها سكانه جيلاً بعد جيل وبقيت حتى عصر متأخر ذات أثر بيّن في حياتهم الفردية والعمومية . وها أنا ذاكر بعض تلك النزعات مقابلاً بين موقف الشرقي منها قديماً وموقفه منها الآن . وأولها :

الانصراف الى ما وراء الطبيعة . فان رسوخ الاعتقاد بعالم غيبي وبكائن سرمدي يدبر الكون بارادته المطلقة ويتصرف باحوال البشر وبنواميس الطبيعة كما يشاء ، ولديه سيقف الأحياء والأموات للحساب فإما الى النعيم واما الى العذاب ، قد أشاع في نفوس الكثيرين قديماً بطلان الحياة الحاضرة ووجوب الزهد فيها والانصراف الى ما يؤهل الانسان للحصول على سعادة الآخرة . ويتضح ذلك فيما نزل على ألسنة الرسل والأنبياء وما لهج به الرعاظ والحكماء كقولهم « ان الدنيا دار بلاغ والآخرة دار قرار » — « باطل الأباطيل، الكل باطل وقبض الريح » — عش لدنياك كأنك تموت غدا ، وعش لآخرتك كأنك تحيا سرمدا — وما إلى ذلك من العظات البالغات التي يعكسها لنا نثراً وشعراً أدبنا الروحي القديم — أدب الزهد والانصراف عن دار الفناء الى دار البقاء — عن مطالب الجسد الى مطالب الروح :

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير الى تباب

هذا النظر المتطرف الى الدنيا وحسبانها عرضاً زائلاً لاقيمة له وممراً فقط لوجود آخر قد طبع الحياة القديمة بطابعه الخاص وهو جلي في شتى آثارها الفكرية والفنية .

ان الانسان عبد قنّ لارادة علوّية قاهرة . فهو لذلك لا يستطيع التصرف بحرّية وليس له الا الاستسلام لقضاء لامردّ له.

قضى الله فينا بالذي هو كائن فتمّ وضاعت حكمة الحكماء

ذلك ما يقوله حكيم المعرّة وهو على العموم يعكس الرأي السائد في جميع المذاهب الروحية . واننا نترك شرح هذا الرأي او مناقشته للراسخين في علم الكلام، وانما نقول ان نزعة كهذه اذا استحكمت في نفس او في جماعة قعدت بها عن الجهاد لقلب الاوضاع التقليدية التي لم تعد تصلح لتقدم الحياة البشرية. والواقع ان تغييراً عظيما من هذا القبيل لم يحدث في الشرق العربي الا بعد ان حركته الثورة الفكرية والاجتماعية التي انقدت في الغرب خلال القرنين الماضيين . وما هذه الثورة عند التحقيق الا نتيجة تحول نفسيّ في الشعوب الحديثة التي اصبحت تؤمن بحرية الانسان ومقدرته على تقرير مصيره وتحسين حاله ، وبعبارة اخرى اصبحت ترى ان الارادة العلوية قد خطّت للانسان سبيل التطور والارتقاء وتركت له حرية السير فيه والوصول الى ما يبتغيه ، فهو وحده المسؤول عن تقدمه وتأخره وعن سعادته وشقائه .

تقديس الماضي واستصغار الحاضر . ولئن لم يبلغ هذا التقديس في الشرق العربي ما بلغه في الشرق الاقصى فان اثره واضح في شتى مناحيه . خذ المنحى الادبي مثلاً فقد كان الشرقي ولا يزال الى حد ما يعظم شأن الاسلاف ويغمط حق الاخلاف. وكذلك قل في المنحى الاجتماعي فان استحكام التقاليد الموروثة في النفوس قد جعل للماضي على الحاضر حق السيد على المسود . ولم تظهر حركة جدية للتحرر من سيادة الماضي الا في خلال هذا القرن فصرنا نرى بيننا من يجرؤ على تفضيل الادب الحديث والافكار الاجتماعية والاقتصادية الجديثة . وهكذا اخذ التجدد يظهر في شتى المناحي . وبعد ان كان الخروج عن سنّة القدماء يعد ضلالاً او نشوزاً صار عدم الخروج يعدّ جموداً وتأخراً .

ومن الانصاف ان نقول ان هذه النزعات القديمة ليست بحدّ ذاتها مما يوجب الانتقاص والمذمة فقد كانت ولا تزال على جانب

عظيم من الاهمية والفائدة فان حياتنا على الارض ليست سلسلة من الثورات الهدامة ، وناموس التطور لا يتطلب انفجارات اجتماعية او فكرية متواصلة وانما هو يقوم على تقدم مطرد تنسجم فيه حسنات الماضي مع حسنات الحاضر انسجاماً يعود بالنفع الاكبر على الجنس البشري. وليس من باب الحكمة ان نطالب بالانفصال التام عن ماضينا والتنازل المطلق عن ميراثنا فنكون كالحيوان الذي لا يعرف الا ما يطلب منه او ما يقدم له من ساعة الى ساعة . كلا ان الحكيم من تمسك من ماضيه بما يساعده على تحسين حاضره فنبذ ما يحول دونه ودون التقدم ولم يخشَ ان يحطم كل ما يجعله عبداً للتقاليد البالية او العادات والمعتقدات الضارة .

امتحنوا كل شيء وتمسكوا بالحسن . هذا هو روح الحضارة الجديدة. ولا ريب ان هذه الروح قد اخذت تفعل فعلها في الشرق العربي بدليل ما نشاهده من تحول الانظار فيه الى هذه الحياة والاهتمام بها. فليست الدنيا بعد، مجرد ممرّ غير جدير بالاهتمام، وليست الطبيعة البشرية حمأة من النقائص والآثام، بل هما الاساس اللازم لبناء بشرية فضلى والارتقاء الى وجود اسمى . والشرقي اليوم قد اصبح يدرك ذلك بل اصبح يدرك حياته وان سعادتها وشقاءها راجعان بالاكثر الى نجاحه او تقصيره في توطيد الانسجام بين نفسه وبيئته ، ولذلك نراه اليوم اكثر اهتماماً بهذه البيئة واكثر حرصاً على تحسينها وتعزيزها. ولا يعني ذلك الاستخفاف بما جاءت به الاديان بل يعني ان مفهومه للعلاقة بين الحياتين الدنيا والاخرى قد تبدل . فبعد ان كان يرى وجوب تحقير الاولى للحصول على الآخرة صار يرى ان هذا التحقير ليس مما يحتمه الدين او يطلبه وهو مخالف لناموس الارتقاء الحقيقي ، وكذلك صار يحترم الطبيعة البشرية ويراها قابلة للتقدم بل للكمال ايضاً .

« كونوا كاملين » صوت رنّ في الشرق العربي منذ الفي سنة تقريباً . ولكن الناس لم يدركوا مغزاه وحقيقته حتى هذا العصر الذي تفتحت فيه اعينهم فرأوا الحياة الارضية على وجهها الصحيح .

ان الشرقي لا يزال يقدس القديم ويكرم السلف، على أنه لم يعد يرى في ذلك ما يوجب قعوده عن الجهاد للتفوق على أسلافه. فهو الآن يعتقد ان إمكانيات العصر الحاضر أوفر من إمكانيات العصور الغابرة . وليس من الانصاف العلمي عنده أن يقال ان القدماء بلغوا ما لا يمكن للمحدثين بلوغه . واذا استثنينا التعاليم أو المبادىء الدينية المنزلة التي كانت ولا تزال أساس الخير والسعادة في كل مكان وزمان ونظرنا الى التاريخ الانساني من وجهتيه الاجتماعية والفكرية اتضح لنا التقدم العظيم الذي أحرزته البشرية خلال تطورها منذ أقدم أزمانها الى الآن . ونحن لا ننكر ظهور العباقرة الذين نبغوا قديماً في شتى المناحي العمرانية والعقلية ولا يزالون يحتلون قمم المجد والتفوق، إلا أن المسألة ليست مسألة أفراد بل مسألة مجتمع إنساني ، فهل يمكن القول ان المجتمع اليوم أقل تقدماً منه في العصور السابقة وان الامكانيات البشرية في هذا الزمان أضعف مما كانت عليه في سالف الأزمان ؟

ذلك ما لا يقره العقل والاختبار وما لا يتفق مع منطق الحوادث ومجرى التطور والارتقاء .

أنيس المقدسي